لما رأيته رأيت القدر

(مهداة إلى « علاء » الصغير)

للآنسة جميلة العلايلي

عند ما يبتسم يتكلم القدر من بين شفتيه، وعند ما ينظر ليتأمل تشع الفلسفة من عينيه، وعند ما يتحرك تعلن الحياة معانيها في أسلوب رمزي فاتن

هكذا كان طفلي الحبيب « علاء » عند ما شاهد فلم « آلام فرتر »، وقد رأيته على غير ميعاد وعرفته دون سابق معرفة ...

إنما فهمته كأني جالسته الأعوام الطوال، وعاشرت روحي روحه الأجيال ... جذبت روح الطفل بساحتها وحلاوتها روحي التي تشرئب دائماً إلى الصفاء الصرف والنقاء الأكيد ...

وهل يمكن أن يأخذ الصفاء مكانه إلا في معين ذلك الطفل الصغير ؟ كنت أحاول أن أطالع فلسفة الحياة من عينيه، فكان يولي وجهه ويسبل أجفانه. فهل كان يدري أن الحقائق الأكيدة المسجلة في أم الكتاب مرقومة واضحة في مقلتيه ؟ هل كان يدري أن معاني الخلود مرسومة على شفتيه ؟ هل كان يدري أن أسرار الوجود منقوشة كظلال من النور على جبينه ؟

هل كان يدري ذلك الطفل الصغير ؟

كان يسأل والده الذي احتضنه بجوانحه، وحباه بعواطفه، كلما تراءت له عواطف الإنسانية في شبه صور متحركة : ما هذا ؟ ولم هذا ؟

وكان يجيبه الوالد في إيجاز عن الاسم والسبب

ويا للفارق الماثل بين فلسفة الصغير وفلسفة الكبير !

الصغير يعرف ويجهل، والكبير يجهل ويعرف ! ...

ياحبيبي البريء، يضلك الوالد عند ما يقول لك: الحياة أمامك. مع أن الحياة فيك ...

لا تتكلم ياحبيبي ودعه يفهمك لتعرف أن الحياة تشوه العقل الفطري بأباطيلها ...

أنت الفيلسوف الحكيم، وأنت العاطفة المثالية العليا ...

إنك تفهم أمك، وتفهم والدك، وتحسب أنهما مثلك فهما براءتك وفلسفتك فتخاطبهما بأسلوبك الرمزي في إيجاز ...

يا حبيبي البريء ...

ما زلت تعيش في سماء الإنسانية وترقب الحياة على ضوء ذهنك الخلاب راجيا أن تسير عجلة الحياة بأمضى سرعتها لتكون رجلاً مثل من سعد بحظ أبوتك، فهل تعرف ياصغيري ما يحمله عقل ذلك الرجل الذي دعوته في لطف وحلاوة باسم « الجدع » ؟ هل تعرف ياصغيري أنك بطفولتك النقية الملائكية أعظم منه برجولته المعقدة الآدمية ؟

هل تعرف أنك كلما زدت في أعوام عمرك عاماً نقصت من إدراك حقائق الوجود أعواماً مهما قالوا إنك غنمت ؟ ...

هل تعرف أنك بقلبك الصغير المليء بالحب العف الطهور، أجل منك بقلبك الكبير المليء بالحب المادي الزاخر بأباطيل الوجود؟

هل تعرف أنك أحب إلى قلب أمك وأبيك من كل حبيب ؟

وغداً عند ما تكبر يحاسبك الوالد بميزان العقل، ويراك نداً له، فيحبك إذا أوليته من نفسك قدر ماتطمع إليه عاطفته، ويمقتك كأي شخص غريب إذا خالفته وخرجت عن تقاليده وأوضاعه ؛ والصلة الروحية الوثيقة التي يقبض على زمامها ملاك الأبوة في الصغر يتهاون في شدها رويداً رويداً لتشعر بأنك فرد لك حريتك وسلطتك وقلبك وعقلك ولا شأن لك بأمك أو أبيك ...

هذه هي مرحلة السعادة الأكيدة التي يقضيها الإنسان في حياته ...

سعادة الطفل بحب أبويه كاملاً

وسعادة الأهل باستسلام الصغير ...

اليوم لا يحب الطفل غير أبويه، وغداً يحب ويحب ويحب، وقد يكون الأهل أول ضحية تقدم على قربان الحب الذاتي

واليوم يحب الوالد طفله، وغداً يتلاشى الفارق بينهما وتؤدي المساواة رسالتها، وقد يكون الابن أول من يحاربه الوالدان تحت تأثير عثرات أباطيل الحياة ليقيم لنفسه وزناً في عالم لا وزن له ...

يا طفلى الحبيب ... تمنيت لو أحفظ لك طفولتك وأدفع الثمن من دمى ، لأحفظ للإنسانية روح الصدق والحب والطمأنينة والسلام ...

اليوم لن تفهم ذلك الأسلوب الذى تعارف عليه الناس وأسموه أدباً لأنك لا تؤمن بغير أسلوب روحك الرمزى النقى ... وغداً عند ما تصقلك الحياة وتعريك أضواء الوجود ... تفهم وتدرك

وسوف تقول : ليتنى ظللت طفلاً لأتمتع بحب أبوى الشامل وأحرك المشاعر بأنغامى العطرة ، وأسيِّر الأقلام بإلهامى ... ليتنى ... ليتنى ...

ولكن هيهات ...

فبعد أعوام ... أسمع عنك وقد أراك ، فأجد الحياة المادية تسيرك ، وألمح روح الحياة العلوى ينسحب فى بطء وحسرة ليتقمص كيان وليد جديد ...

أدام الله لك قلبك بعاطفته البريئة النقية ... ولتتصرف الحياة فى كل ما تملك ... عدا قلبك ... عدا قلبك ... لتكون كأبيك تحب لتخلد ...

لما سألت والدك : لم مات فرتر؟ أجابك: لأنه أحب وأخفق . فابتسمت ابتسامة عميقة أعمق من فلسفة الوجود لو ارتسمت فى شبه بسمة وقلت : «يعنى لما الواحد يحب واحدة ولا تكونش مراته يموت » ، فضحك وقال : أجل

فهل علم الوالد أنك تفهم أكثر منه وأنك تضلله بسؤالك آه . . . لو قال لك : إنه مات لأنه جعل الحب غاية ، وكان يريد أن ينتصر فى المعركة ، فلما انعزل وجد الموت مع الكرامة أشرف من الحياة مع المهانة ، لو قال ذلك . . . لارتسمت تلك الحروف فى ذهنك مدى الأعوام ولصرت بطل جيلك . . .

يا صغيرى الحبيب !

إنى أتوسم فيك سمات البطولة

وألمح فى عينيك شعاع المجد المرتقب

وأرى حركاتك بثير الصراع الحيوى الشريف . . .

فعش لأبيك ذكرى خالدة ، ولوطنك شعلة الحب والحق والحرية . . .

جميلة العلايلى

من تاريخنا النسوى

أستاذة الصحابة

للأستاذ سعيد الأفغانى

سلخت سنين فى دراسة السيدة عائشة كنت فيها حيال معجزة لا يجد القلم إلى وصفها سبيلاً . وأخص ما يبهر فيها : علم زاخر كالبحر بعد غور، وتلاطم أمواج، وسعة آفاق، واختلاف ألوان . فما شئت إذ ذاك من تمكن فى فقه أو حديث أو تفسير أو علم بشريعة أو آداب أو شعر أو أخبار أو أنساب أو مفاخر أو طب أو تاريخ . . . فإنك واجد منه ما يروعك عند هذه السيدة ، ولن تقضى عجباً من اضطلاعها بكل أولئك وهى لا تتجاوز الثامنة عشرة

ولست بسبيل بيان ذلك الآن ، وإنما أخبرك أنى وقعت وأنا أنقب فى كنوز المكتبة الظاهرية بدمشق على مجموعة خطية فى آخرها رسالة نفيسة للإمام بدر الدين الزركشى الشافعى المصرى قصرها على موضوع واحد هو : استدراكات السيدة عائشة على الصحابة

* * *

من خصائص المرء ذى الطبيعة العلمية أن يكون طُلَعة كثير السؤال ، لا يهدأ له بال حتى يرضى طمأنينته ويجلو لنفسه كل خفى مما يحيط به . وكانت السيدة عائشة بهذه الصفة ، ساعدها على بلوغ ما بلغت من المعرفة أنها ربيت فى حجر أبى بكر الصديق أعلم الناس بأنساب العرب وأخبار قبائلها وميزات بطونها ، فحازت من ذلك علماً كثيراً . ثم انتقلت إلى بيت الرسول ومهبط الوحى فكانت أقرب الناس من معين العلم ، فغرفت منه ما لم يتيسر لأحد غيرها لمكانها منه كزوجة ، ولما تفردت به من ذكاء نادر وفكر واسع . وكلما عظم حظ الإنسان من المعرفة كثر تطلعه إلى مافوقه . أما الجاهل فليس بمعنىٍّ أن يبحث أو أن يسأل ، فإذا أصاب من المعرفة حظاً بطريق العرض كان أبعد الناس من أن تطلب نفسه مزيداً أو تثير له شكوكاً أو تحدثه بسؤال يسأله